الفصل الثالث

شوارع القدس العتيقة

م. عالية سامح عكاشة

منظر لمدينة القدس من أعلى جبل الزيتون، عام ١٩٠٥

المصدر: Osman Colin، ١٩٩٩

obeikan.com

حين سرت، أدق بقدمي، على طرقات وأزقة القدس، وجدتها تنبض بتاريخها.

حين لمست حجارة مبانيها، فاحت منها رائحة الياسمين، محمَّلة بأنين سنين غنية بالأحداث والتفاصيل.

حين ضممت حجرًا، كان ملقًى على إحدى الطرقات، شعرت أني أضم كل أهالي القدس من صغار وشيوخ.

١ـ المقدمة

الشوارع هي التاريخ الحي، التاريخ الملموس، فهي ليست مسارات مبلَّطة، تتراص على جوانبها حوائط حجرية بأبواب ونوافذ. بل إنها خطوات مشاها أناس، سطروا بها تاريخًا، ضحوا وماتوا، ليحفظوا هويَّة هذا الشارع التاريخي.

خلال العصور المختلفة، اتخذت جميع النشاطات العمرانية والمجتمعية من الشارع الرئيسي الحيوي مكانًا لها، فلم يكن الشارع مجرد مسار للعبور فحسب، بل مكانًا للتجمع، للتجارة، ولتجول الباعة، ولراحة المارة، ومكان إشهار الحدث، والتشهير بالمجرمين، و...إلخ. فما بالك بشوارع مدينة كالقدس، إنها متحف مفتوح، تسير في شوارعها كأنك تقلب صفحات كتاب تاريخي عربي، فتصميم مبانيها وعمارتها، وتخطيط شوارعها، ينبض ككل المدن العربية القديمة، يتكلم نفس اللغة والمفردات المعمارية، والعمرانية، تحمل نفس الصفات، والخواص التي تميِّز المدن العربية، كالقاهرة، حلب، دمشق، الجزائر، تونس، بغداد... إلخ. وإن كانت القدس تحمل في طياتها تاريخًا خاصًا، كان وراء شهرة هذه المدينة الصغيرة.

يحاول هذا البحث، من خلال التتبع السريع للمحطات الأساسية في تاريخ القدس، رصد شوارع القدس الشهيرة في البلدة القديمة، وأهم ملامحها، وسماتها العمرانية، من حيث النسيج التخطيطي، وما ارتبط بها من حياة ثقافية واجتماعية ودينية.

٢ ـ محطات تاريخية

تعتبر القدس مدينة مقدسة بالنسبة للديانات التوحيدية الثلاث: الإسلام، المسيحية، اليهودية. بالنسبة للمسلمين فهي تحوي المسجد الأقصى، ثالث أقدس المساجد عند المسلمين، وأولى القبلتين، قبل الصلاة باتجاه الكعبة، أيضًا من القدس عُرج بالرسول محمد ﷺ إلى السماء، حسبما يعتقد المسلمون، أما بالنسبة للمسيحية، ففيها كنيسة القيامة، وهي المدينة التي شهدت صلب المسيح، وقيامته، حسبما يعتقد المسيحيون، أما بالنسبة لليهود فأورشليم (القدس) مدينة مقدسة لديهم، منذ القرن الرابع قبل الميلاد، حسب تقديرات بعض المؤرخين، أو من القرن التاسع قبل الميلاد، حسب المعتقد اليهودي الشائع، وتقول الشريعة اليهودية إن أهم صلواتهم يجب أن تكون بالتوجه نحو القدس.

جعلت هذه الأهمية والقدسية الثلاثية الجوانب القدس، دومًا، وعبر التاريخ، مركز اهتمام كبير لجميع أتباع الديانات التوحيدية. وهي طالما جمعتهم في ظلها، وطالما شهدت حروبًا مختلفة للسيطرة عليها، وغالبًا ما كانت تأخذ هذه الحروب مظهرًا دينيًّا.

مرت القدس بمحطات أثرت بعمارتها، وتخطيطها، ومبانيها المميزة، نذكر منها التالي:

ـ القدس ما قبل الفتح الإسلامي[1]:

سيدنا سليمان (٩٦٥ ـ ٩٢٨ ق.م) يَخلُف أباه داود، وهو أول شخصية عبرانية تُوجَد عنها وثائق تاريخية غير توراتية. تزدهر المملكة العبرانية المتحدة في عهده، وتُبنَى المدن، وتنشط التجارة. يبدأ بناء الهيكل، في السنة الرابعة من حكمه (٩٦٠ ق.م)، بمساعدة حيرام، ملك صور الفينيقي، وينهيه في السنة الحادية عشرة (٩٥٣ ق.م) بعد سبع سنوات وستة أشهر.

* المملكة الجنوبية (٩٢٨ ـ ٧٩٥ ق.م) تحت رئاسة قبيلة يهودا (عاصمتها القدس). كانت أكثر استقرارًا من المملكة الشمالية، لصغر حجمها، وقلة أهميتها، وفقرها، وبُعدها عن طرق الجيوش الغازية. ظَهَر فيها معظم الأنبياء، كما دُوِّن فيها معظم نصوص «العهد القديم».

* صدقيا، آخر ملوك المملكة الجنوبية (٥٩٧ ـ ٥٨٦ ق.م)، يتظاهر بالولاء للقوة البابلية الجديدة، ولكنه يتحالف مع المصريين، في العام التاسع من حكمه، ويحاول الاستقلال عن بابل، وينضم إلى التمرد، الذي ضم فينيقيا، وشرق الأردن، وفلسطين كلها. ترسل مصر قوة لمساعدة المملكة الجنوبية، ولكنها تُهزَم، وتبوء محاولة الاستقلال بالفشل، وتُدمَّر القدس، وجميع مدن المملكة، والهيكل. كما تم تهجير النخبة العبرانية، إلى بابل (٥٨٦ ق.م)، واختفاء سفينة العهد.

* ٥٢٠ ق.م يعاد بناء الهيكل الثاني (٥٢٠ ـ ٥١٥ ق.م).

* ١٧٢ ق.م تصبح القدس مدينة يونانية (بوليس) باسم إنطيوخيا.

* ٦٣ ق.م تسقط القدس في يد بومبي، وفلسطين تصبح جزءًا من مقاطعة سوريا الرومانية.

* ٨٣٠ م. صلب المسيح (حسب الرؤية المسيحية).

* ٧٠ م. يتوج فسبسيان إمبراطورًا على روما (٦٩ ـ ٧٩). ويقوم بحصار القدس، وهَدْم الهيكل، وتدمير القدس.

ثم أعيد بناؤها في عهد الإمبراطور هادريانس، وأطلق عليها اسم إيليا كابيتولينا، عام ١٣٥م، ثم أحرقها الفرس، عام ٦١٤ م.

ـ القدس في ظل العصور الإسلامية

سيطر المسلمون على القدس، عام ٦٣٨م، في عصر الخليفة عمر بن الخطاب، حيث استلم مفاتيحها من بطريركها، صفرونيوس، وأسماها العرب «القدس»، وقام الأمويون بتعمير علامات مميَّزة في القدس، تلاهم الحكم العباسي، ثم الدولة الإخشيدية، فالعصر الفاطمي.

سيطر عليها الصليبيون، عام ١٠٩٩م، واسترجعها المسلمون، بقيادة صلاح الدين الأيوبي، بعد معركة حطين، عام ١١٨٧م.

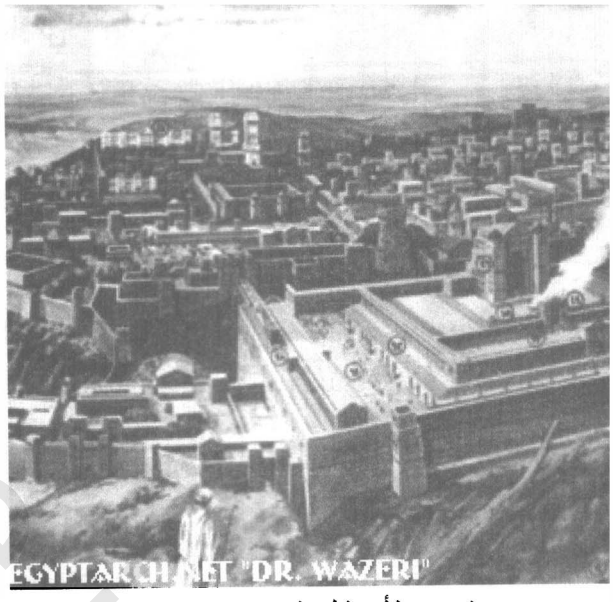

تصور لأورشليم في عهد هيرود
المصدر: يحيى وزيري، ٢٠٠٥

حكم المماليك القدس، ومن القرن الـ١٥ وحتى بداية القرن الـ٢٠، خضعت القدس لسيطرة العثمانيين الأتراك. وفي بداية القرن الـ١٥ قام السلطان العثماني بترميم المدينة، وإعادة بناء سورها، الذي لا يزال يحيط بالبلدة القديمة. ومنذ هذا الوقت، والقدس القديمة تحافظ على هذه السمات المتراكمة، التي شكلت نسيج المدينة. ثم وقعت تحت الاحتلال البريطاني، كبقية المدن الفلسطينية منذ عام ١٩١٧ م. الذي مهد بدوره للاحتلال الإسرائيلي للقدس عام ١٩٦٧م، ولا تزال ترزح تحت عبئه، حتى يومنا هذا، وتقاومه.

وبناءً على المحطات السابقة، نستنتج بأن مدينة القدس، التي تعرضت للهدم والبناء، عدة مرات، أصبحت مدينة مكوَّنة من طبقات تاريخية، وركام حجارة فوق بعضها، يصعب فصل تخطيط شوارع أي مرحلة منها، و تحديدها بدقة، عدا الفترة الأخيرة من بعد الفتح الإسلامي.

٣ ـ تخطيط القدس

الأحياء/ الشوارع/ العلامات المميِّزة

كانت مدينة القدس مقسمة إلى أربعة قطاعات كبيرة، خلال فترة الحكم العثماني، يفصل تلك القطاعات شارعان رئيسيان، أحدهما شارع شمالي جنوبي، والآخر شرقي غربي، (انظر الخريطة رقم ٢). هذه القطاعات الأربعة مجزأة، أيضًا، إلى ثماني عشرة مقاطعة فرعية صغيرة. وقد أخذت القطاعات الأربعة الرئيسية شخصيتها، وملامحها، من الناحية الدينية، من الجماعات التي ضمتها، لقرون طويلة، من يهود، وأرمن، ومسيحيين، ومسلمين[٢].

خلال الحكم العثماني، شغل الحي الإسلامي الجزء الشمالي الشرقي من القدس، بمحاذاة الحرم الشريف، الذي يشرف على المداخل الشمالية والغربية، ممتدًّا على جانبي الشارع الرئيسي، بدءًا من بوابة دمشق، وحتى الحرم الشريف[٣].

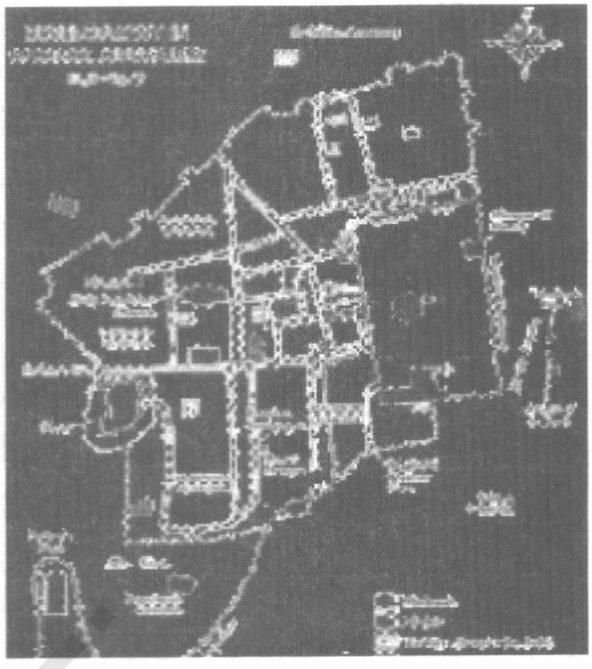

خريطة (١) القدس في العصر المملوكي
المصدر: يحيى الوزيري، ٢٠٠٥

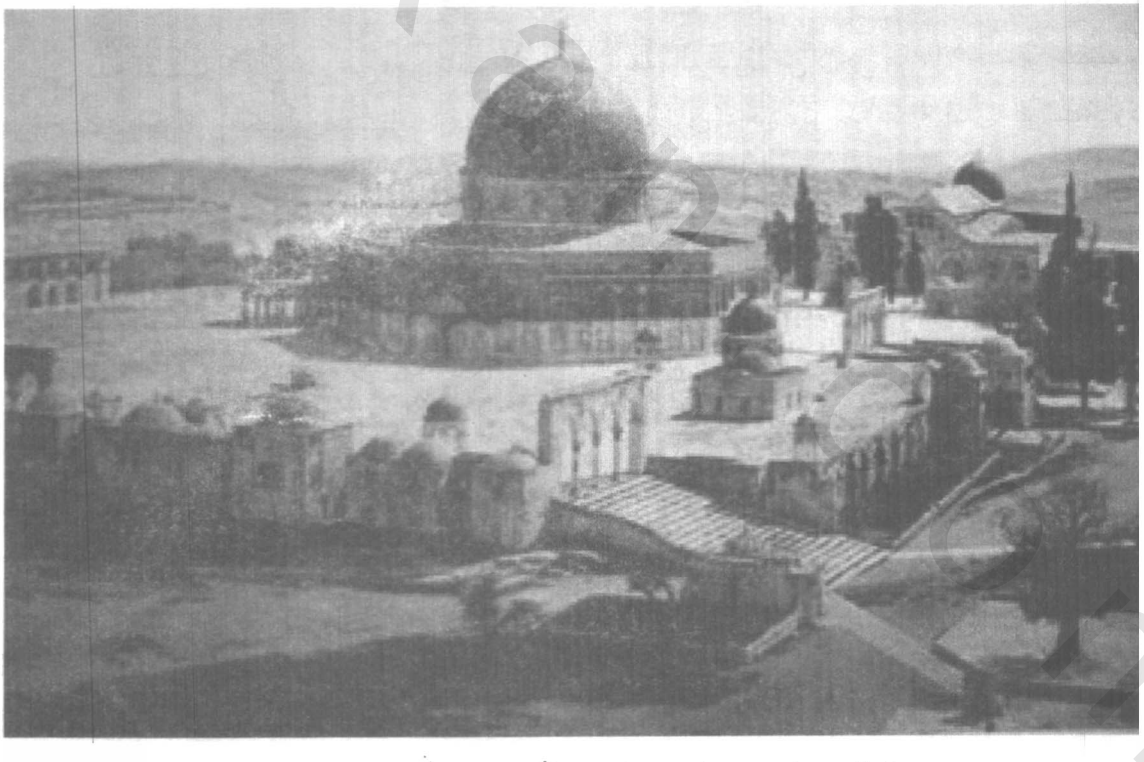

منظر للحرم الشريف يظهر فيه المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، عام ١٨٩٥

المصدر: Osman Colin، ١٩٩٩

احتل الحي المسيحي ربع المدينة الشمالي الغربي وضم بعض الأماكن المقدسة لدى المسيحيين، ككنيسة القيامة. أما الحي الأرمني، فكان موجودًا في جنوب غربي المدينة، والحي اليهودي في الجنوب الشرقي، ويفصله الحي المغربي عن حائط البراق (المبكى)[٤].

لجأت الدولة العثمانية إلى تنظيم غير المسلمين في طوائف، عرفت بالملل، ونظام الملة يعطي قدرًا من الاستقلال لأصحاب الطائفة عن الدولة العثمانية، حيث كان لرئيس الطائفة سلطة القضاء بين أبنائها في منازعاتهم، في الأحوال الشخصية، وأحيانًا في الأحوال المدنية، مما رسخ العزلة، وأدى لزيادة نفوذ الزعامة الدينية والعشائرية[٥].

فكانت جميع الجاليات، العرقية، والدينية، المتنوعة، تنظم في كيانات شبه إدارية، يرأسها المشايخ، وكثيرًا ما يكون هؤلاء المشايخ هم أنفسهم الرؤساء الدينيون، وذلك في حالة ما إذا كانت الجالية تمثل أقلية مذهبية. ويتشابه هذا التنظيم، إذن، مع تنظيمات الطوائف المهنية، بل في بعض الأحيان يمتزج بها، وذلك حين تكون الجاليات، العرقية، أو الدينية، متخصصة في نشاط مهني محدد. هذا النموذج التنظيمي كان سائدًا في جميع المدن العربية الكبيرة في العصر العثماني[٦].

كان أتباع كل طائفة دينية يركزون نشاطاتهم، ومنازلهم، حول أماكنهم المقدسة، بخلاف المسلمين، الذين حافظوا على تصميم الحرم الشريف، الذي يتوسطه مسجد قبة الصخرة، الذي يحيطه تراسات (مستويات) متنوعة المناسيب، حولها أسوار، تعزل الحرم عن الحي الإسلامي، ولا يزال هذا الوضع إلى يومنا الحالي.

سهَّل هذا التقسيم لأهالي كل حي، من تلك الأحياء الأربعة، الوصول من داخل هذه الأحياء إلى منطقة وسط المدينة (ملتقى الطريقين الكبيرين: الشمالي- الجنوبي، والشرقي - الغربي)، حيث توجد أسواق المدينة الرئيسية. وكانت هذه الأسواق التجارية تمثل نقطة جذب، كما كانت، في الوقت نفسه، منطقة عازلة بين الطوائف الرئيسية[٧].

ترك الحكم العثماني حدود تخطيط المدينة الأصلي، مع قليل من الإضافات، كطبقة أخرى لما سبقها من عمران، دون مسح الأصلي، رغم سنوات الحكم، التي دامت أربعمائة عام، منذ فتح السلطان سليم الأول، سنة ١٥١٧م، وحتى الاحتلال البريطاني، بقيادة الجنرال اللنبي، سنة ١٩١٧م[٨].

يتسم تخطيط شوارع القدس عامة بالشكل المتضام و المتعرِّج، كثير المنحنيات، كمعظم المدن العربية، يرجع هذا إلى عدة عوامل، منها توفير الخصوصية لكل جماعة، كذلك بسبب المناخ، الذي لعب دورًا في تشكيل الشوارع، أيضًا، فمن المعروف أن معظم الدول العربية ذات مناخ حار، خاصة في الصيف، وأشعة الشمس ساطعة، معظم أيام السنة، ولقد وجد المخططون، والمعماريون أن النسيج العمراني المتضام، ذا الشوارع المتعرجة، يوفر ظلالًا للطرق، تحمي المشاة من أشعة الشمس، مع وجود مناطق مضيئة أخرى، وهذا التنوع في الإضاءة، يمنع الملل عن المشاة، و يجذبهم للسير في طرقات البلدة القديمة، خاصة التي بها أنشطة تجارية.

نجد معالجة منطقة السوق (الخان) مختلفة، فقد سقفت بأقبية، وعقود متقاطعة، تتخللها طاقات للنور، لتوفر أكبر مساحة مظللة، تشجع على حركة المتجولين، والعابرين، والراغبين في التسوق.

خريطة (٢) مناطق القدس الأربع
المصدر: أندريه ريمون، ١٩٩١

كما روعي ألا يزيد ارتفاع المباني على جانبي الشارع عن أربعة طوابق ، في أقصى الحالات، مما يتناسب مع ضيق الشوارع، حتى لا يمنع البناء الضوء والهواء عن جاره في الأدوار السفلية، أو عن المارين في الشارع، وهو ما عرف بحق الجيرة، فلا ضرر ولا ضرار.

يندرج تخطيط مدينة القدس تحت التصميم الداخلي للمدن، أو المدينة القلب، أو المركز، كما يطلق عليها المخططون، فالقلب التاريخي ـ الشارع في هذه الحالة ـ قد خصص لفترة، كانت وسيلة المواصلات فيه إما للمشاة، أو لعربات تجرها الأحصنة، أو الحمير. ونجد أن أرضية الشوارع مُهِّدت بقطع من كسر الحجارة، وهي المادة التي مثلت حوائط البنايات، أيضًا، وتتسم عمارة القدس، بانها عمارة عربية، متناغمة في تناسقها(*) . وقد كثر استخدام الحجارة، نظرًا لوفرتها في الطبيعة الجبلية الحجرية حول مدينة القدس، وفلسطين عامة.

أما نسيج المدينة، وهو العلاقة بين الكتل والفراغات، فهو نسيج متضام، فوق شبكة حركة متعرِّجة، تبدو غير منتظمة، عدا الشارعين الرئيسيين، يبدو تخطيط الشوارع غير منتظم، وبزوايا تقاطع دقيقة، وشوارع، في الأغلب، قصيرة، ومنحنية، متغيرة العروض، وتذهب في اتجاهات مختلفة.

(*) لعبت العمارة دورًا في تأكيد طابع الشارع العمراني، وأثرت في تميزه البصري، إلا أن هذا خارج نطاق هذه الدراسة.

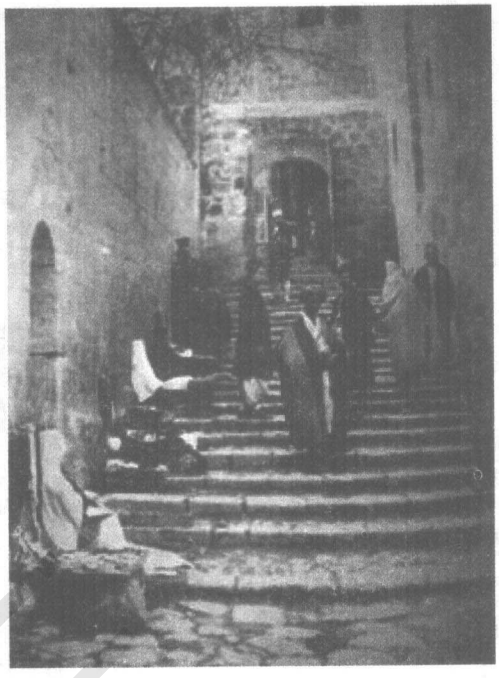

طريق بدرج يؤدي إلى كنيسة القيامة، والباعة على جانب المسار
المصدر: Osman Colin، ١٩٩٩

و إن كان يمكن تصنيفها من حيث التدرج، كالتالي:

شوارع فرعية ـ ممرات وأزقة ـ تؤدي إلى مساكن خاصة.

شوارع مجمعة، تصب بها عدة ممرات فرعية.

شارع رئيسي، أو قصبة، تصب بها الشوارع المجمعة.

كما يمكن تصنيف الشوارع، من حيث تغير العروض، والتقاطعات، والاستمرارية، فمثلًا الشارع الرئيسي (القصبة) من أعرض الشوارع، وبه تقاطعات كثيرة، ومستمر، يقطع المدينة بطولها، عكس الشوارع الفرعية (الأزقة) ضيقة العروض، ليس بها تقاطعات، تقريبًا، وقد لا تستمر، بل تنتهي بمبنى يسد الطريق، مما يوفر الخصوصية السكنية، ويحقق وظيفة كل طريق، ودرجة علاقته بالعامة. وهي بهذا تشبه في علاقاتها، وتفرعاتها، ونموها الشجرة، من حيث أوراق الشجر (الأزقة)، ثم الفروع (الشوارع المجمعة)، ثم الجذع (القصبة)[٩].

إن تخطيط المدن القديمة يعتمد، في الأساس، على تغير الشكل، أثناء المسار، لما له علاقة بالإدراك الحسي، حيث تصبح الحاسة وظيفة مهمة، مرتبطة بالقدرة على التعرف على الأماكن، والسلوك الوقتي، ومعرفة الطريق، وكل هذا مطلوب للوصول إلى المكان.

تأكدت شخصية مدينة القدس، داخل كل مربع، بالمباني الضخمة المميزة لكل ربع، خاصة قبة الصخرة. فحين تسير في شوارع القدس الضيقة، يمكنك أن تلمح قبة الصخرة، تلمع في نهاية مسارك، كعلامة مميِّزة للربع الإسلامي.

فالمرء يمكنه أن يدرك، ويحفظ في ذاكرته، مقاطعات (مناطق)، لها هوية مرئية واضحة، وهو ما يطلق عليه اسم الصورة الذهنية، بخلق علامات مميزة ملحوظة أو مسموعة، في نقاط، أو أوقات إستراتيجية، تستمر، وتؤكد على الشخصية العمرانية الحضارية، الموجودة بالفعل في المكان.

شوارع القدس وقبة الصخرة العلامة المميزة
المصدر: الباحثة، ١٩٩٦.

«كما يمكن للمرء أن يدرك المكان، من خلال المحيط، لما يحويه من أنشطة، تجعله أكثر ترحيبًا، كالأسواق، وهذا، أيضًا، ما تحققه أسواق القدس القديمة. بينما التنقلات البصرية، الفجائية، تحقق تأثيرًا قويًّا على إدراك المرء، فالمشي خلال الشوارع الضيقة يجذبك من خلال انحناءاتها وانفتاحها مرة أخرى».

«في الماضي، كان أخذ الحاسة البصرية في الاعتبار، أثناء تصميم المدن، يعتمد، في الأساس، على تحليل البيئة المحسوسة، فمبادئ كالتناغم، والجمال، والتنوع، والنظام... كانت خلاصة فكر»[١٠].

٤- الشوارع الأكثر شهرة

«ديار النبيين، ومركز الصالحين... به القبلة الأولى، وموضع الحشر، والمسرى، والأرض المقدسة، والرباطات الفاضلة، والثغور الجليلة، والجبال الشريفة، ومهاجر إبراهيم، وديار أيوب وبئره، ومحراب داود، وبابه، وعجائب سليمان، ومدنه ... وباب حطة، ذو القدر، والشأن... جنة الدنيا... بيت المقدس، ليس في مدائن الكور أكبر منها، وقصبات كثيرة أصغر منها... بنيانهم حجر، ولا ترى أحسن منه، ولا أتقن من بنائها... وهي أصغر من مكة، وأكبر من المدينة، عليها حصن بعضه على جبل، وعلى بقيته خندق، ولها ثمانية أبواب حديد...» [١١].

صممت الشوارع القديمة، والحارات، والأزقة الضيقة لسير المشاة، في الأغلب، فالقليل منها الذي يتسع لحركة العربات. وكان ينصح بتوخي الحذر، أثناء السير في حاراتها؛ لأنها لم تكن مصممة لصرف الأمطار، فتراكمت بها البرك، ورغم أن الشوارع القديمة في الأغلب دفنت تحت كسر الأحجار، وردم السنين، فإن هناك آثارًا باقية، مثل

شوارع من العصر الروماني، التي كشف عنها حديثًا. وشوارع أخرى أكدت على صحة عراقة تاريخ شوارع البلدة القديمة، والتي نذكر منها المسارت التالية:

شوارع من العصر الروماني، كشف عنها حديثا
المصدر: الإنترنت، ويكيبيديا، الموسوعة الحرة

ـ شارع السوق القديم

سبق وذكرنا أن الشارعين الرئيسيين، اللذين يقسمان المدينة، تتجمع عندهما مراكز النشاط الحيوي، التجاري بالأخص، وكانت الأنشطة المتشابهة تتركز في بؤر خاصة، فالعطارون، مثلًا، يتجمعون معًا، وكذلك القطانون، وبائعو الأقمشة، وغيرهم. وهذه التجمعات تعود إلى نظام الطوائف المهنية، الذي كان سائدًا خلال الحكم العثماني.

يعد الشارع المسقوف، حيث بازارات القدس الشهيرة، أشهر فراغات هذا الشارع، وأكثرها التصاقًا في ذاكرة زائري القدس، ليس لتميز المنتجات المقدسية الصنع التي تباع فيه فحسب، ولكن، أيضًا، لتميزه المعماري، والعمراني، فقد تم تصميم الشارع ليكون مغطى بأقبية، وعقود متقاطعة، تتخللها فتحات إضاءة، بإيقاع يشبه إيقاع موسيقي منتظم، مما يوفر الظلال والمناخ المناسب، للتمتع بالتسوق، خلال فترات اليوم المختلفة، وقد وفر ارتفاع العقود العالي مساحة من التهوية، وخلق تيارات هواء تسعد المارة في هذا الطريق.

تأثرت ملامح شارع السوق القديم بالباعة من الأهالي المحليين، كما تأثرت بحركة العابرين، والزائرين. فصمم أكثر اتساعًا، وضم محلات على جانبيه، تبيع منتجات أهل القدس المحلية.

السوق في القدس القديمة
المصدر: الإنترنت / www.anniebees.com /the old city of Jerusalem

ـ طريق الآلام[١٢]:

تعد كنيسة القيامة من أقدس المواقع المسيحية، ورغم أن الكثير من علماء الآثار، وعلماء اللاهوت، قد يختلفون على حقيقة موقع الكنيسة الحالي، هل هو نفس الموقع المقصود، أو قريب منه؟ فإن هذا لا يقلل من قدسية الكنيسة.

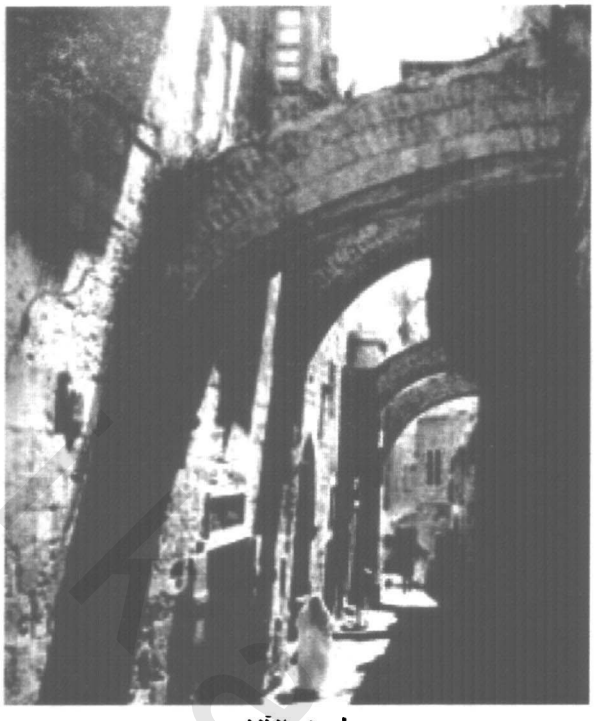

طريق الآلام
المصدر: Osman Colin، ١٩٩٩

مدخل الكنيسة، يقع في جهة الشرق، من حيث يبدأ طريق الآلام، من بوابة الأسباط، شمال الحرم الشريف، مخترقا بذلك الحي الإسلامي، وصولًا للحي المسيحي. وهو طريق الأحزان، أو طريق الصلب، كما يطلق عليه البعض، لكن الاسم الأكثر شيوعًا عالميًا هو طريق الآلام.

يعتقد المسيحيون أنه الطريق الذي مر فيه **يسوع المسيح** من المحكمة إلى **جبل الجلجلة**، حيث تم صلبه، وقد سميت بهذا الاسم نسبةً للآلام التي عاناها المسيح في الطريق. ويبدأ طريق الآلام من **باب الأسباط**، وينتهي عند **كنيسة القيامة**، وعرف الطريق بتقاطعاته، وبمحطات الصليب. وكنائس العالم بها لوح منقوش لهذه المحطات، وأغلب الكنائس البروتستانتينية تضم إحدى عشرة محطة للصلب، و الكنائس الأخرى، تعدهم اثنتي عشرة محطة، إلا القدس الوحيدة، التي تضم خمس عشرة محطة. وهي كالتالي:

١- محاكمة المسيح.

٢- حمل المسيح صليبه، ووضع على رأسه تاج الشوك.

٣- سقوط المسيح، لأول مرة.

٤- لقاء المسيح بوالدته.

٥- رجل من قيروان يحمل الصليب عن المسيح.

٦- فيرونيكا تمسح وجه المسيح.

٧- سقوط المسيح، للمرة الثانية.

٨- المسيح يكلم السيدة.

٩- سقوط المسيح، للمرة الثالثة.

١٠- تجريد المسيح من ثوبه.

١١- مسمرة المسيح بالصليب.

١٢- موت المسيح على الصليب.

١٣- إنزال المسيح من على الصليب.

١٤- إرقاد المسيح في قبره (مدفنه).

١٥- قيامة المسيح من الموت.

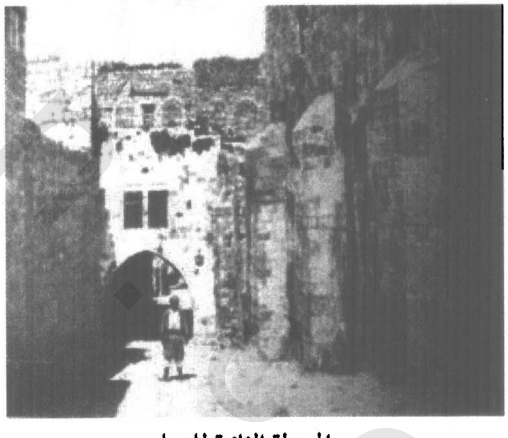

المحطة الثانية للصلب

المحطة الرابعة للصلب

المصدر: Osman Colin، ١٩٩٩

خلال هذه المحطات يرتل بعض المسيحيين صلوات قصيرة ، ويعتقد البعض أن هذا المسار ليس الطريق الحقيقي، الذي سلكه المسيح، فالمسار الحقيقي الذي مشاه المسيح دفن تحت حوالي ٦٠-٧٠ قدما، ولا يوجد ما يضمن أن تكون الشوارع الحالية مبنية فوق الأولى، تمامًا، كما لا يمكن تحديد الكثير من المحطات، بدقة.

المحطة الخامسة للصلب

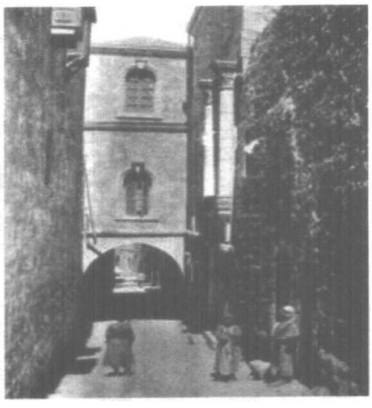

المحطة السادسة للصلب

المصدر: Osman Colin، ١٩٩٩

يكتسب هذا الشارع مظهرًا خاصًّا في الأعياد المسيحية، كعيدي الفصح والقيامة، حيث يشهد كثافة في حركة السكان المحليين، والحجاج المسيحيين.

الحجاج في عشية عيد الفصح أمام كنيسة القيامة ، عام ١٨٨٥م
المصدر: Osman Colin، ١٩٩٩

ـ حارة المغاربة[١٣]:

حارة المغاربة ،أو **حي المغاربة**، كانت حارة في جنوب شرق البلدة القديمة لمدينة **القدس**، بجوار **حائط البراق**، المدعو إسرائيليًّا بـ(حائط المبكى). في ٦ يونيو/ حزيران **١٩٦٧**، خلال **الحرب العربية الإسرائيلية**، الثالثة، احتل **الجيش الإسرائيلي** الجزء الشرقي من مدينة **القدس** الذي كان، في ذلك الحين، تحت الإدارة الأردنية. عند نهاية الحرب (في الـ١٠ أو الـ١١ من يونيو/ حزيران) دمرت إسرائيل حارة المغاربة، التي شملت ١٣٥ مبنى. ثمة تقرير يشير إلى

أن رئيس بلدية القدس الغربية آنذاك (**تيدي كولك**)، أمر بتدمير الحارة، وحسب تقرير آخر، لفت ضابط إسرائيلي انتباه وزير الدفاع الإسرائيلي آنذاك، **موشي ديان**، إلى وجود مراحيض ملتصقة **بحائط البراق**، فأعطاه إذنًا بهدمها، مع الحارة كلها. كانت النية من تدمير الحارة إقامة ساحة لاستقبال مئات الآلاف من اليهود، الذين جاءوا لأداء الصلاة، أمام الحائط، بعد أن منعت السلطات الأردنية احتشاد اليهود أمام الحائط، منذ ١٩٤٩م، وإذ كان المكان الضيق بينه وبين بيوت حارة المغاربة المجاور، ولم يكن يتسع إلا لبضع مئات.

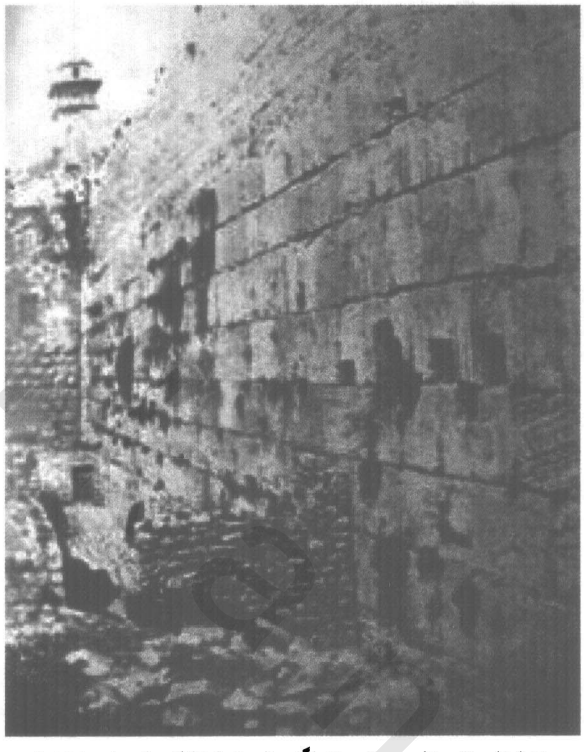

حائط البراق، المدعو إسرائيليًّا بـ(حائط المبكى) عام ١٨٦٦م
المصدر: Osman Colin، ١٩٩٩

كان هذا الحي رمزًا لتعلق المغاربة بالقدس الشريف، فمنذ السنوات الأولى لاعتناقهم الإسلام، كان جُلهم يمر بالشام، بعد إتمام فريضة الحج، حتى ينعم برؤية مسرى الرسول ﷺ، ويحقق الأجر في الرحلة إلى المساجد الثلاثة (المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى). كان المغاربة يقصدونه كذلك طلبًا للعلم، كما أن الكثير من أعلام المغرب أقاموا هناك، لبضع سنوات، كأمثال الشيخ **سيدي صالح حرازم**، المتوفى **بفاس**، أواسط القرن السادس، والشيخ المقري التلمساني، صاحب كتاب «**نفح الطيب**».

لم تكن فريضتا **الحج**، و**طلب العلم**، هما الدافعان الوحيدان لتواجد المغاربة، في تلك البقعة الشريفة، بل كان ثمة دافع ثالث، لا يقل أهمية، وهو المشاركة في الجهاد، خلال **حروب الفرنجة**. فقد تطوع المغاربة في جيوش نور الدين، وأبلوا بلاءً حسنًا، و بقوا على العهد، زمن **صلاح الدين الأيوبي**، إلى أن تحررت المدينة من قبضة الفرنجة الغزاة. بعد الفتح، اعتاد المغاربة أن يجاوروا قرب الزاوية الجنوبية الغربية لحائط الحرم الشريف، أقرب مكان من المسجد الأقصى. وعِرفَانًا منه، وَقَفَ الملك الأفضل ابن صلاح الدين الأيوبي هذه البقعة على المغاربة، سنة ١١٩٣ م (٥٨٣

هـ)، وهي نفس السنة التي توفي فيها صلاح الدين، بعد خمس سنوات من فتحه المدينة. سُمي الحي، منذ ذلك الحين، باسم حارة أو حي المغاربة، وكان يضم، بالإضافة إلى المنازل، عديدًا من المرافق، أهمها المدرسة الأفضلية، التي بناها الملك الأفضل، وسميت باسمه.

عمل الكثير من المغاربة، بعد ذلك، على صيانة هذا الوقف، وتنميته، باقتناء العقارات المجاورة له، وحبسها صدقاتٍ جارية، ومن أشهر هؤلاء، نذكر العالم أبا مدين شعيب، تلميذ الشيخ سيدي صالح حرازم، ودفين تلمسان (٥٩٤ هـ)، الذي حبس مكانين كانا تحت تصرفه، أحدهما قرية تسمى عين كارم، بضواحي القدس، والآخرُ إيوان، الذي يقع داخل المدينة العتيقة، ويحده شرقًا «حائط البراق». ظلت جميع تلك الأوقاف محفوظة، عبر السنين، وظلت الدُّول المتعاقبة على الحكم، تحترمها، خاصة أيام **الدولة العثمانية**، وكذلك أيام **الاحتلال البريطاني**.

في المرحلة النهائية، من المعارك في القدس في غضون **حرب يونيو/ حزيران ١٩٦٧م**، احتل **الجيش الإسرائيلي** حي المغاربة، مع باقي حارات القدس التي كانت خضعت للسلطة الأردنية، وفي **١٠ يونيو**/ حزيران ١٩٦٧م، أمرت السلطات الإسرائيلية بإخلاء سكان الحارة، وتدميرها، لتُسويه بالأرض، ولتقيم مكانه ساحة عمومية قبالة «**حائط البراق**». تم التدمير، خلال ساعات قليلة، وشمل ١٣٨ بناية، من بينها جامع البراق، وجامع المغاربة، وكذلك المدرسة الأفضلية، الزاوية الفخرية، ومقام الشيخ.

من عرض المثالين السابقين، نجد كيف انتعش مسار، ودمر آخر، بسبب سلسلة أحداث تاريخية، ارتبطت بأناس، أثروا و تأثّروا بالمسار، وخلقوا علاقات مختلفة مع المكان.

٥ ـ الحياة الثقافية والاجتماعية لشوارع القدس

إن الشارع، والأنساق العمرانية، التي يعد الشارع جزءًا متكاملًا معها، تنعكس، بل تساعد، على الحفاظ على شكل محدد من التنظيم المكاني، فالشوارع تحافظ على نمط معين من الحياة والعلاقات، من خلال توفير حواجز، ووصلات تحدد درجة التفاعل الاجتماعي بين الجماعات المختلفة. ويرجع الكثير نشأة الشوارع إلى الاحتياج للخصوصية المكانية، وارتباط نشأة الشارع بالمدينة والحضارة. إن تطور التقسيم الطبقي خصص الشوارع، لخلق مجاورات سكنية منفصلة لكل طبقة على حدة. ومن أوضح سمات هذا التقسيم زيادة المركزية قوة.

«حين نتحرك خلال مقياس النظام الاجتماعي، نجد هذا التخصص، منعكسًا في تخصص الشوارع. فمثلًا، عند زيادة عدد المؤسسات، ينتج زيادة من الشبكات المتقاطعة للعلاقات الاجتماعية، لربط المجتمع ببعضه البعض، وفي نفس الوقت، تتوالد منظمات، وجمعيات تخلق، أكثر فأكثر، مؤسسات خاصة... وهكذا، وينعكس هذا التطور على شبكات الشوارع، أيضًا، فتنشأ الشوارع الطائفية، لاحقًا بالشوارع المتخصصة بالـحِرَف والأعمال، وشوارع للتجارة، أو للأغراض الترفيهية ... كما يظهر فصل المناطق السكنية»[١٤].

«إن النصارى واليهود في - عهد المقدسي(*) - كانوا قد غلبوا على بيت المقدس، وأغلب الظن أن هذه الغلبة لم تكن عددية، وإنما تعني السيطرة على مقاليد الأمور؛ لأن النصارى كانوا قد استولوا على وظائف مهمة، إذ كان

(*) أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي، المعروف بالبشاري، صاحب كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم».

الكتبة منهم، في أرجاء البلاد، كما كان منهم الأطباء، فإذا وصفهم المقدسي بالكثرة فتلك الكثرة، أيضًا، نسبية؛ لأنها، في أغلب الظن، لم تكن تروقه. أما اليهود فكانوا هم المسؤولين عن بعض الصناعات الحيوية، كالصيرفة، والصياغة، والجهبذة»[١٥].

كانت الحياة العمرانية في فلسطين عامة، والقدس خاصة، تتأثر سلبًا، بثلاثة عوامل: الهجمات الخارجية، والكوارث الطبيعية، كالزلازل، والأوبئة، التي تزعزع الاستقرار العمراني، وتعسُّف الحكام في جباية الضرائب، وما له من أثر اقتصادي، يؤثر على جميع جوانب الحياة، ومنها حركة العمران.

«فقد وقع زلزال، أيام العباسيين، طرح المغطى من المسجد الأقصى، إلا ما حول المحراب، ولعل ذلك حدث في خلافة المهدي، فلما بلغ الخليفة خبره، وعظَّموا عليه تكاليف إصلاحه، كتب إلى أمراء الأطراف، وسائر القواد أن يبني كل واحد منهم رواقًا، فبنوها أغلظ وأوثق صناعة مما كانت، وفي عهد المأمون، أيضًا، ضعفت كنيسة القيامة، وكادت تسقط، فقام بطريرك القدس بتجديدها، واستحضر لذلك خشب الأرز والصنوبر من قبرص، وأمده أحد أثرياء القبط بالمال اللازم لترميمها»[١٦].

أما خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلادي، فيستشف من إعجاب المقدسي بمدينة القدس، السابق الذكر، أنها كانت، لكثرة مشاهدها الدينية، مقصد الزوار من شتى البقاع. «وقد قدر من يقصدها من المسلمين ـ ممن لا يستطيعون الحج إلى مكة ـ بأكثر من عشرين ألف شخص، كما كان يؤمها كثير من النصارى واليهود، ولهذا كثرت الفنادق، كما كان فيها مستشفى عظيم عليه أوقاف طائلة، تصرف لمرضاه الأدوية، وبها أطباء يتقاضون مرتبهم من الأوقاف» [١٧].

أنشئ في عصر الأيوبيين، والمماليك، وبداية العصر العثماني عدد من المدارس، والمساجد، والبيوت الصوفية، كما ازدهرت معاهد العلم، التي استقطبت عددًا كبيرًا من العلماء من فلسطين وخارجها، وراجت الكتب، وازداد عددها، مما أدى إلى إنشاء المكتبات، وأشهرها المكتبة الخالدية، في شارع السلسلة، وكانت من أهم المكتبات الإسلامية في القدس، وقد ذاع صيتها. فقد أنشأ المكتبة الخالدية، في عام ١٨٩٩ ميلادي (١٣١٨ هجري)، الحاج راغب الخالدي، باعتبارها وقفًا إسلاميًّا.

كان القصد من المكتبة أن تكون مكتبة عمومية، لتعزيز نشر العلم، وبعث الاهتمام بأمهات الكتب، في العلوم الإسلامية، وفي الموضوعات الحديثة[١٨].

تعد مدينة القدس حالة متفردة، بين كل الأماكن المقدسة، لجذب السياح من مختلف القوميات، والديانات، والثقافات. تشكلت السياحة الدينية في أوروبا، ثم بدأت تفد إلى القدس، في القرن السادس عشر، وتزايدت في القرن التاسع عشر، لقد تحولت السياحة من الفردية إلى الجماعات المنظمة إلى الأراضي المقدسة، في ربيع ١٨٦٩م، عندما قام توماس كوك، وابنه، بتنظيم رحلة سياحية لزيارة مصر، والأراضي المقدسة، لعدد ٣٠ سائحًا. وفي عام ١٨٨٢م، قادت الشركة أكثر من خمسة آلاف سائح للأماكن نفسها. وقد وصلت عام ١٩٩٥م لأكثر من ٢ مليون سائح، قاموا بزيارة القدس، في عام واحد[١٩].

مدخل المكتبة الخالدية، في القدس

المصدر: Osman Colin، ١٩٩٩

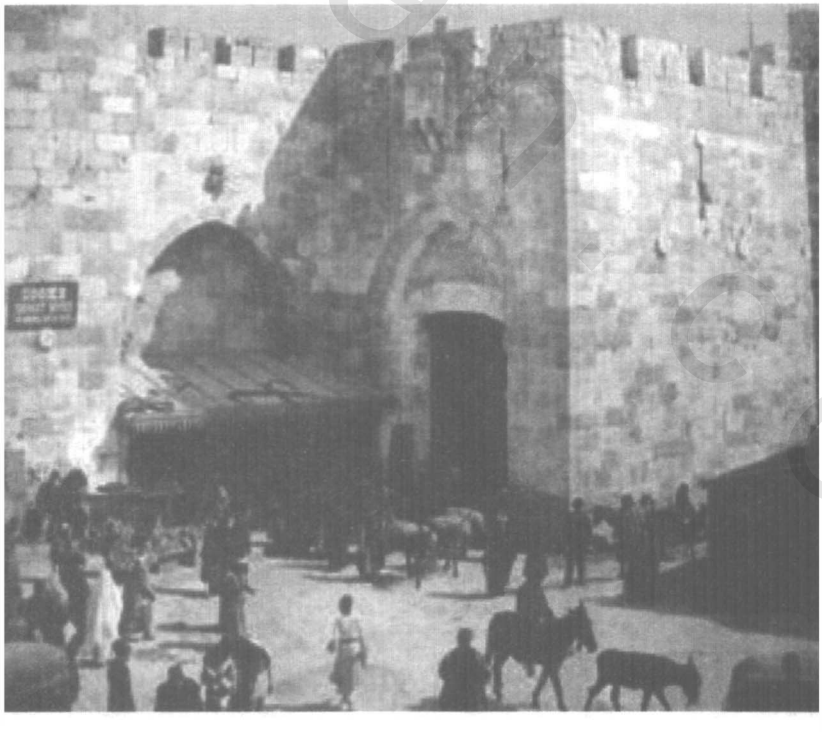

بوابة يافا عام ١٩٠٥م، وتظهر علامة مكتب توماس كوك للسياحة

المصدر: Osman Colin، ١٩٩٩

إن الغرض من السياحة الدينية للقدس كان تعريف السائح، أو الحاج بتاريخ دينه، حيث يمكنه أن يدرك ويجسد معنى العالم الروحاني، الذي يتبناه، وتشكل تجربة الحاج إلى القدس علاقة اجتماعية متينة مرتبطة بالأماكن الدينية، والحكايات، والمرويات الخاصة بمعتقده.

٦ـ الخاتمة

منذ بداية الاحتلال الإسرائيلي للقدس، عام ١٩٦٧م، شَرَعت سُلطات الاحتلال تنفّذ الخُطط والإجراءات الرّامية إلى تهويد المدينة الـمُقدّسة. فقامت بربط أهالي القدس الشّرقية، إداريًّا، وقضائيًّا، واقتصاديًّا، وتعليميًّا بالواقع الإسرائيلي؛ إلاّ أنّ أخطر الإجراءات، وأكثرها تعسّفًا هو الاستيطان، والاستيلاء على الأراضي، والمنازل. فبعد أن قامت قوّات الاحتلال بهدم حيّ المغاربة، وطَردْ سكّانه، وإجلاء قسم كبير من أهالي حيّ الشّرف في البلدة القديمة، ومصادرة الكثير من الأراضي، وإقامة الـمُستعمرات عليها، والاستيلاء على العديد من المنازل العربيّة، ولا تزال مستمرة في عدوانها.

صادرت قوّات الاحتلال أكثر من ٢٣ ألف دونم من أراضي القدس الشرقية، ومحيطها. وأقامت عليها أكثر من ٣٥ ألف وحدةٍ سكنيّةٍ، في حين حُرِّم على العرب إقّامة أيّ وحدةٍ سكنيّةٍ. ولا تزال سلطات الاحتلال مستمرةً في مخطّطاتها، بمصادرة الأراضي.

يحيط بالقدس حوالي عشرة أحياءٍ سكنيّةٍ يهوديّةٍ، وأكثر من ٤١ مستعمرةٍ، تُشكّل خمس كتلٍ استيطانيّةٍ.

قامت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة بالعديد من الإجراءات لرفع نسبة السكان اليهود، في الجزء الشرقي من مدينة القدس، ومن خلال بناء حارات يهودية جديدة، بين الحارات والقرى العربية الموجودة عبر «الخط الأخضر»، وتشجيع المواطنين الإسرائيليين، ليستقروا فيها. ونلاحظ أن تخطيط الأجزاء الجديدة، ونسيجها يختلف، تمامًا، عن هوية البلدة القديمة، فالشوارع متعامدة، منتظمة، متسعة، وذات بنايات مرتفعة، تشبه المدن الأوروبية الحديثة، فبناتها من ثقافة مختلفة عن المكان.

كذلك فقد استخدمت بلدية القدس المخطط الحضري للمدينة، كأحد الأدوات لمنع التوسع العمراني للحارات العربية، عن طريق تحديد المناطق التي يمكنهم فيها البناء، وتقنين منح رخص البناء والترميم، وهدم البيوت التي تقام دون الحصول على التراخيص اللازمة من السلطات الإسرائيلية. هذا غير ما تقوم به من حفر للأنفاق أسفل الحرم الشريف، خاصة المسجد الأقصى، بذريعة البحث عن الهيكل.

كل هذا وأكثر، رغم أنه قد تم تصنيف مدينة القدس، من قبل منظمة «اليونيسكو»، كمدينة تراثية عالمية، عام ١٩٨١ م[٢٠].

لا تزال القدس تفتقد لعمليات الحفاظ العمراني، بسبب تعسف الاحتلال، ونقص الدعم المادي، وغياب إدارة للحفاظ العمراني، كما أن زيادة السياح، والتلوث، يسهمان في تهديد الآثار، خاصة مع افتقاد ترميم وصيانة للكثير من عمارتها وشوارعها. مما يهدد بقاء البلدة القديمة، رغم وضعها ضمن قائمة التراث المهدد من قبل منظمة «اليونسكو» عام ١٩٨٢م، بدعوى توفير الحماية لها[٢١].

لهذا نتمنى على المعماريين، والمخططين، والمهتمين بعمران القدس، المشاركة بممارسة دورهم، في الدفاع عن عمران القدس، الذي يعد ملكًا للعالم، كتراث عالمي، لا بد من الحفاظ عليه. وتفعيل دور الأمم المتحدة، والمؤسسات الدولية، حيث يمكن للمؤسسات المهتمة بالحفاظ على المناطق ذات القيمة التاريخية، كاليونسكو، أن تمارس دورًا أكبر في إعادة تنظيم الإستراتيجيات الوطنية، بشأن التعامل مع الكوارث التي تقوم بها قوات الاحتلال من تهويد لمدينة القدس، ويتم ذلك من خلال:

(أ) زيادة المعرفة والوعي.

(ب) الخبرة التقنية، والتبادل في المعلومات مع الأهالي الأصليين.

(ج) تسريع مشاريع التخفيف من الأضرار، والعدوان الصهيوني، وتمويل هذه المشاريع.

(د) تشجيع الأهالي الأصليين على مقاومة التهويد لمدينتهم.

حيث إن وسائل المقاومة للاحتلال لا تقتصر على المقاومة بالسلاح فحسب، بل وجدت بدائل أخرى، تتكامل معًا، فهناك من يناضل بالكلمة، وباللوحة، وبالأغنية، وبالحفاظ على التراث، والهوية ... إلخ، كل يقاوم بالوسيلة التي يتقنها.

لعل العمارة، التي شهدت على بشاعة الاحتلال، الذي يلحق الدمار بكل ما له قيمة، مهددًا بطمس ذاكرة الجماعة، يمكنها أن توجد أشكالًا مختلفة للمقاومة، ذات أثر فاعل، ومؤثر، عن طريق الآتي:

(أ) التسويق للقيمة التاريخية للعمران، وأهميته.

(ب)حماية القيمة (الشوارع التاريخية الحية).

(ج) رصد القيمة (الشوارع)، وتسجيلها.

(د) تجريم أي اعتداءات على القيمة الممثلة في التاريخ الحي والعمران.

* * *

هوامش الفصل الثالث:

(١) عبد الوهاب المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، الطبعة الإليكترونية، القاهرة.

(٢) أندريه ريمون، **المدن العربية الكبرى في العصر العثماني**، ترجمة: لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩١، ص١٣١.

(٣) **المرجع نفسة**، الصفحة نفسها.

(4) Sylvia Auld & Robert Hillenbrand (Editor),**Ottoman Jerusalem.. the living city 15171917-**..the urban structure and physical organization of Ottoman Jerusalem in the context of Ottoman urbanism. by: Paolo Guneo). Altajir world of Islam Trust. 2000.pages (211220-).

(٥) أحمد صادق سعد، (بعض المنطلقات الثقافية للنزاعات الطائفية)، في: أبو سيف يوسف وآخرون، **المشكلة الطائفية في مصر**، ط١، القاهرة، مركز البحوث العربية، ١٩٨٨، ص ٤٤.

(٦) ريمون، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٠٠-١٠١.

(٧) **المرجع نفسه** ، ص ١٣١.

(8) Sylvia Auld & Robert Hillenbrand (Editor). reference mentioned before pages (211220-).

(9) Stephen Marshall. **Streets patterns**. Spon press. NY. U.S.A. and Canada. 2005. Pages (85.89.129.163).

(10) **Good City Form**. the MIT press. fifth printing 1987. first paper back. Kevin Lynch (edition 1984. by Massachusetts Institute of Technology. .Pages (147. 150).

(١١) المقدسي ، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط٣، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١، ص (١٥١و١٦٦-١٩٣).

(١٢) (Colin Osman. Jerusalem caught in time. A.U.C. press. Cairo. 1999. pages (56-58.

وإنجيل متى، الإصحاح ٢٨،٢٧،٢٦

(١٣) موقع الإنترنت، ويكيبيديا الموسوعة الحرة، حارة المغاربة، عن مئير بن دوف، موردخاي ناؤور وزئيف عينار (١٩٨٧). «الحائط»، ص ١٦٧ (باللغة العبرية).

(14) Stanford Anderson (Editor). **On Streets**. the Institute for Architecture & Urban Studies. The MIT Press. 1986. page (232).

(١٥) إحسان عباس، **فصول حول الحياة الثقافية والعمرانية في فلسطين**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان-بيروت، ١٩٩٣.

(١٦) **المرجع نفسه**، ص ٧.

(١٧) **المرجع نفسه**، ص ١٦.

(18) www.khalidilibrary.org

(19) The Tourist City. **Tourism in Jerusalem a place to pry**. by : Arie Shachar & Noam (211-Shoval. Yale university. U.S.A. 1999. pages (198).

(20) www. \Al-Hakawati.mht/ jerusalem

(21) jerusalem\History Channel \ www.UNESCO